مصطفى الغرافي

مادة: السرد والشعر القديمين لطلبة الماستر المتخصص (الفصل الثالث)

الخميس 31-12- 2020

الخبر عند ابن قتيبة

(تابع)

الخبر بين الوظيفة الجمالية والوظيفة التداولية:

يستطيع الدارس عند مقابلته المرويات المتشابهة في المصنفات النثرية العربية القديمة أن يستخلص أن الأخبار تتحاور وتتفاعل، تتناسل ويتولد بعضها من بعض وفق قانون خاص تتطور بموجبه نصوص الأخبار من البسيط إلى المركب في مسارها البنيوي، ومن الاقتصاد إلى التوسع في مسارها الخِطابي. وإذا كان هذا المبدأ مقررا في معظم الدراسات المرصودة لبحث الخبر وفحصه[1]، فإن دارس أخبار ابن قتيبة يسترعي نظره نصوص خبرية عديدة تنتهك هذا القانون، لأنها تتطور من المركب إلى البسيط، ومن التوسع إلى الاقتصاد.

إن انتهاك الخبر عند ابن قتيبة لمعايير توالد النصوص السردية يتواتر بصورة لافتة؛ حيث يرتفع فيها إلى مستوى السمة البلاغية المخصوصة. لأنها لا تأتي اعتباطا أو عفو الخاطر، ولكنها استراتيجية نصية صادرة عن تدبير مقصود يتوجه إلى إجمال الأخبار واختزالها انطلاقا من فهم خاص لمفهوم الخبر

---

[1] - لقد توقف محمد القاضي في كتابه "الخبر في الأدب العربي عند ظاهرة "تناسل الأخبار" وبعد فحص دقيق للأخبار المتشابهة التي ضمتها مدونة الدراسة تقرر لديه أن الانتقال يكون من خبر مختصر إلى خبر موسع: "القانون الذي تسنده طبيعة الأشياء وتاريخ الأدب يدل على أن الخبر يتطور من الاختصار إلى التضخيم".(ص: 513). وإذا كان القاضي قد لحظ أن ظاهرة "تناسل الأخبار" لها "وجه" (من البسيط إلى المركب) و"قفا" (من المركب إلى البسيط)، فقد تقرر لديه –في المحصلة- أن "الوجه" هو الأصل. أما "القفا" فسمة عارضة نادرة الحدوث. والنصوص التي تمثلها قليلة. ولذلك اعتبرها فرعا على أصل أو الاستثناء الذي لا يدعو لمراجعة النتائج التي سبق تقريرها. ومن ثم "يبقى التضخيم هو السنة" (ص: 513)

ووظيفته. يرجح ذلك أن ظاهرة الانتقال من المركب إلى البسيط لا تقتصر على الأخبار المشابهة لنصوص واردة في مصنفات أخرى، ولكنه يشمل الأخبار الواردة في المصنف نفسه، حيث صورة الخبر مركبا ترد، عند ابن قتيبة، سابقة على صورته مجملا. مما يؤكد أن ابن قتيبة يعكس عن قصد حركية الخبر، إذ الانطلاق من المركب إلى البسيط يمثل استراتيجية بلاغية مقصودة عند ابن قتيبة كما يظهر من هذين الخبرين[2]:

"كان بالبصرة شيخ من بني نهشل يقال له عروة ابن مرثد ويكنى أبا الأغر ببني أخت له في سكة بني مازن، وبنو أخته من قريش، فخرج رجالهم إلى ضياعهم في شهر رمضان وخرج النساء يصلين في مسجدهم فلم يبق في الدار إلا الإماء، فدخل كلب يعتس، فرأى بيتا فدخله وانصفق الباب فسمع الحركة بعض الإماء، فظنوا أن لصا دخل الدار، فذهبت إحداهن إلى أبي الأغر فأخبرته، فقال أبو الأغر: ما يبتغي اللص؟ ثم أخذ عصاه وجاء. فوقف على باب البيت وقال: إيه يا ملأمان، أما والله إنك بي لعارف؛ فهل أنت إلا من لصوص بني مازن شربت حامضا خبيثا حتى إذا دارت القدوح في رأسك منتك نفسك الأماني، وقلت: أطرق ديار بني عمرو والرجال خلوف والنساء يصلين في مسجدهم فأسرقهم. سوءة لك؛ والله ما يفعل هذا ولد الأحرار، وأيم الله لتخرجن أو لأهتفن هتفة مشؤومة يلتقي فيها الحيان عمرو وحنظلة، وتجيئ سعد بعدد الحصى وتسيل عليك الرجال من هاهنا ومن هاهنا، ولئن فعلت لتكونن أشأم مولود. فلما رأى أنه لا يجيبه أحد أخذ باللين فقال: اخرج بأبي وأمي؛ أنت مستور، إني والله ما أراك تعرفني ولو عرفتني لقنعت بقولي واطمأننت إلي. أنا . فديتك . أبو الأغر النهشلي، وأنا خال القوم وجلدة بين أعينهم لا يعصونني، ولن تضار الليلة فاخرج فأنت في ذمتي وعندي قوصرتان أهداهما إلي ابن أختي البار الوصول، فخذ إحداهما فانتبذها حلالا من الله ورسوله. وكان الكلب إذا سمع الكلام أطرق وإذا سكت وثب يريغ المخرج، فتهافت أبو الأغر ثم تضاحك وقال: يا ألأم الناس وأوضعهم، لا أرى إلا أني الليلة في

---

[2] ـ ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج 1، ص: 160.

واد وأنت لي في واد، أقلب السوداء والبيضاء فتصيخ وتطرق، وإذا سكت عنك وثبت تريغ المخرج، والله لتخرجن أو لألجن عليك البيت. فلما طال وقوفه جاءت إحدى الإماء فقالت: أعرابي مجنون، والله ما أرى في البيت شيئا، فدفعت الباب فخرج الكلب شدا وحاد عنه أبو الإغر ساقطا على قفاه، ثم قال: يا لله ما رأيت كالليلة؟ والله ما أراه إلا كلبا، أما والله لو علمت بحاله لولجت عليه".

وشبيه بهذا حديث لأبي النميري، وكان له سيف ليس بينه وبين الخشبة فرق، وكان يسميه لعاب المنية. قال جار له: أشرفت عليه ليلة وقد انتضاه وشمر وهو يقول: أيها المغتر بنا والمجترئ علينا، بئس والله ما اخترت لنفسك، خير قليل وسيف صقيل، لعاب المنية الذي سمعت به، مشهور ضربته لا تخاف نبوته، اخرج بالعفو عنك وإلا دخلت بالعقوبة عليك، إني والله إن أدع قيسا تملأ الأرض خيلا ورجلا، يا سبحان الله؛ ما أكثرها وأطيبها؟ ثم فتح الباب فإذا كلب قد خرج، فقال: الحمد لله الذي مسخك كلبا وكفاني حربا"[3].

إن قارئ هذين الخبرين لا يساوره شك في أنهما ينحدران من مصدر واحد. وهو ما تنبه إليه ابن قتيبة نفسه عندما افتتح الخبر الثاني بعبارة "وشبيه بهذا الحديث". فالحدث في الخبرين واحد، مداره على رجل جبان يواجه ما يعتقد أنه لص، ومن أجل تأجيل المواجهة بينه وبين اللص المزعوم يتوجه إليه بخطاب ينذره فيه بسوء المنقلب إن هو لم يخرج مستسلما، لكن اللص ما يلبث أن يتكشف عن "كلب". لقد توافق الخبران حكاية ومتنا، لكنهما تباينا صورة وخطابا، حيث فصل الأول وأجمل الثاني. وقد كان يفترض أن يتقدم الخبر المجمل الخبر المفصل تبعا للقانون الذي يحكم توالد الأخبار وتناسلها.

إذا كان الانتقال من المركب إلى البسيط قد وقع، في الشاهد، داخل نفس الكتاب، فإننا نتوقف هنا، تأكيدا لهذا الملمح، عند خبر ورد في كتابين مختلفين. جاء عند الجاحظ مفصلا في حين ورد عند ابن قتيبة مجملا:

---

[3] - ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج 1، صص: 160 - 161,

يقول الجاحظ في كتابه "الحيوان": " أنشد أبو الحسن بن خالويه عن أبي عبيدة لبعض الشعراء:

يُعَرِّدُ عَنْهُ جارُهُ وشقيقُه ويَنْبِشُ عَنْهُ كلْبُهُ وَهْو ضارِبُهْ

قال أبو عبيدة: قيل ذلك لأن رجلا خرج إلى الجبان ينتظر ركابه، فاتبعه كلب كان له، فضرب الكلب وطرده، وكره أن يتبعه، ورماه بحجر، فأبى الكلب إلا أن يتبعه، فلما صار إلى الموضع الذي يريد فيه الانتظار، ربض الكلب قريبا، فبينما هو كذلك، إذ أتاه أعداء يطلبونه بطائلة لهم عنده، وكان معه جار له وأخوه، فأسلماه وهربا عنه، فجرح جراحات، ورمي به في بئر غير بعيدة القعر، ثم حثي عليه بالتراب، ثم غطي رأسه، ثم كمم فوق رأسه، والكلب في ذلك يهر ، فلما انصرفوا أتى رأس البئر فما زال يعوي وينبش عنه، ويحثو التراب بيده، ويكشف عن رأسه حتى أظهر رأسه، فتنفس وردت إليه الروح، وقد كاد يموت ولم يبق معه إلا حشاشة .

فبينما هو كذلك إذ مر ناس فأنكروا مكان الكلب، ورأوه كأنه يحفر عن قبر، فنظروا فإذا هم بالرجل على تلك الحال، فاستشالوه فأخرجوه حيا، وحملوه حتى أدوه إلى أهله[...] وهذا العمل يدل على وفاء طبيعي وإلف غريزي، ومحاماة شديدة، وعلى معرفة وصبر، وعلى كرم وشكر، وعلى غناء عجيب ومنفعة تفوق المنافع، لأن ذلك كله كان من غير تكلف ولا تصنع"[4].

وقد أورد ابن قتيبة هذا الخبر في صياغة سردية مختلفة. يقول: "... وقد كان أبو عبيدة يذكر أن رجلين سافرا، ومع أحدهما كلبه، فوقع عليهما اللصوص، فقاتل أحدهما حتى غلب وأخذ، وجاءت الغربان وسباع الطير، فحامت حوله تريد أن تنهشه وتقلع عينيه، ورأى ذلك كلب كان معه، فلم يزل ينبش التراب عنه حتى استخرجه، ومن قبل ذلك، قد فر صاحبه وأسلمه.

قال: ففي ذلك يقول الشاعر:

---

[4] - الجاحظ، الحيوان، ج 2 ص، 281

يُعَرِّدُ عَنْهُ جارُهُ وَرَفِيقُه ويَنْبِشُ عَنْهُ كلْبُهُ وَهْو ضارِبُهْ

وليس لشيء من الحيوان مثل محاماته على أهله، وذبه عنهم مع الإساءة إليه، والطرد والضرب"[5].

لا شك أن النظر إلى هذين النصين نظرة مقارنة يؤكد أن نصوص ابن قتيبة الخبرية تخرق في معظمها قانون تطور الخبر الذي تنتقل الأخبار بموجبه من البسيط إلى المركب[6]. ولأجل ذلك لفت نظرنا، عند المقارنة بين الخبرين، أن رواية ابن قتيبة توجهت، بالرغم من كونها لاحقة على رواية الجاحظ، إلى الاختزال والإجمال. وهو ما انعكس على بنية الخبر الذي جاء أقل تمركزا في الفضاء النصي، لأن ابن قتيبة حذف كثيرا من التفاصيل التي مكن لها الجاحظ في روايته. ومما يسترعي النظر كذلك أن الحكاية وردت في كتابين مثقلين بالهموم الكلامية والمقاصد الفكرية والاعتقادية ("تأويل مختلف الحديث" لابن قتيبة و"الحيوان" للجاحظ). ولما كانت الأخبار الواردة في تضاعيث مؤلفات ابن قتيبة والجاحظ أدوات يسخرها المؤلفان لخدمة المقاصد الفكرية والعقدية، فإن فصلها عن السياقات المعرفية والثقافية التي أحاطت بإنتاجها يشكل نوعا من البتر الذي يسيء إلى المقاصد الدلالية والإيديولوجية التي أريد لها أن تؤديها.

لقد جاء الخبران من حيث بناؤهما الشكلي موافقين لنمط القص المثالي كما حدده تودوروف[7]؛ حيث تبدأ القصة المثالية بحالة استقرار وتوازن، ثم تتطور عندما تتدخل عوامل طارئة تنقل الأحداث من حالة التوازن إلى عدم التوازن، لتتوجه الحكاية بعد ذلك نحو إعادة التوازن والاستقرار من جديد بفضل القوة التي تبذل في الاتجاه المعاكس (رد الفعل). والخبر لا يخرج، بروايتيه، عن هذا البناء؛ فقد بدأ بحالة استقرار وتوازن جسدتها المتتالية الأولى من الخبر، التي تنبئ عن رجل خرج مسافرا يتبعه كلبه. وتعقب

---

[5] - ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث، ص: 127

[6] - محمد القاضي "الخبر في الأدب العربي : ص: 513

[7] - "إن القصة المثالية تبدأ بوضعية هادئة تجعلها قوة ما مضطربة. وينتج عن ذلك حالة اضطراب ويعود التوازن بفضل قوة موجهة وجهة معاكسة -تودوروف، الشعرية ص: 69.

حالة التوازن هذه حالة من عدم التوازن يمثلها التهديد الذي تعرضت له حياة الشخصية عندما هاجمها اللصوص وألقوها في بئر. بعد ذلك تتحرك الأحداث في اتجاه إنهاء حالة التوازن والعودة إلى حالة الاستقرار، التي تتحقق عندما يقوم الكلب بإنقاذ صاحبه، حيث أزال عنه التراب واستخرجه.

وإذا كان الخبران يتفقان بناء ومادة حكي، فإنهما يفترقان خطابا؛ فنص ابن قتيبة يبدي اهتماما ظاهرا بوظيفية النص ونجاعته، حيث الخبر لا يروى لذاته، ولكنه يروى تدليلا على صحة الفكرة أو الأطروحة التي يدافع عنها المؤلف (إبراز منافع الكلاب في معرض الاستدلال على صحة حديث جاء فيه "لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها"[8]). ولذلك عمد ابن قتيبة إلى اختزال الخبر وإجماله ما دام القصد من روايته يتلخص في الإعلام بالخبر والإبلاغ عن الحدث. أما الجاحظ فإنه، وإن سخر هو الآخر نصه الخبري للدفاع عن فكرة "الاستدلال بالخلق على الخالق" التي أدار عليها كتابه "الحيوان"؛ فإن نصه تميز من نص ابن قتيبة بمراعاة متطلبات التخييل، حيث تجاوز مجرد الإخبار والحديث عن كلب ينقذ صاحبه من الموت، كما هي الحال في نص ابن قتيبة، إلى المزاوجة بين الفكرة والصياغة أو الحكاية والخطاب. ذلك أن الجاحظ عندما يتقصى التفاصيل والجزئيات، فإنه يكون قد وفى التخييل حقه، وحقق في نفس الآن مقصده من اتخاذ الخبر أداة لتقرير مبادئ الاعتزال وتأكيدها في ذهن قارئه. فما من شك أن التفاصيل التي عني الجاحظ بتتبعها واستقصائها قد ساعدته على توضيح المقاصد الفكرية والعقدية التي صاغ في ضوئها نصه الخبري.

من التفاصيل التي زخر بها نص الجاحظ وغابت عن نص ابن قتيبة الاعتناء بتصوير وفاء الكلب الذي دلت عليه تفصيلات دقيقة التقطتها عين الجاحظ. وقد ظهر ذلك في:

– حرص الكلب على مرافقة صاحبه وإصراره على عدم التخلي عنه رغم قسوته عليه، وتهديده له بالضرب تارة والطرد تارة أخرى.

---

[8] - - ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث، ص: 126

– إصراره على ملازمة صاحبه وقت الخطر وعدم التخلي عنه صنيع جاره وشقيقه اللذين هربا وأسلماه.

– رصد الجهد الفائق الذي بذله الكلب لإنقاذ صاحبه.

– تصوير ذكاء الكلب الذي وجهه إلى إزالة التراب عن الرأس حتى يتمكن الرجل من التنفس واستنشاق الهواء.

لقد توخى الجاحظ من سرد هذه التفاصيل دعم الفكرة التي أدار عليها كتابه "الحيوان"؛ فكل ما قام به الكلب لا يخرج عن كونه قوة غريزية أودعها فيه الصانع الحكيم. وإذا ثبت ذلك استقام للجاحظ أن يتخذ من الحيوان بما هو "حكمة"[9] دليلا يستدل به على وجود الخالق. وهو مقصد كشف عنه الجاحظ في تعقيبه على نص الخبر بالقول: "وهذا العمل (إنقاذ الكلب صاحبه) يدل على وفاء طبيعي وإلف غريزي ومحاماة شديدة، وعلى معرفة وصبر، وعلى كرم وشكر، وغناء عجيب، ومنفعة تفوق النافع، لأن ذلك كله كان من غير تكلف ولا تصنع"[10].

إن الخبر عند الجاحظ ليس مجرد قناة للإعلام بالأحداث؛ ولكنه مزاوجة بين الوظيفة الجمالية الأدبية والقصدية الفكرية الإيديولوجية. أما ابن قتيبة فيبدو أن القيمة الجمالية عنده عرضية، والجوهر هو المحتوى الفكري والعقدي الذي أولاه عناية قصوى، لانصرافه في كل ما كتب وألف إلى منفعة متقبليه وإفادتهم تعليما وتثقيفا. ولذلك كان جهد ابن قتيبة منصبا في الغالب على "القول"، ولم يكن يلتفت إلا في النادر إلى "طريقة القول"، فالغالب على خطابه الخبري التوجه إلى الإعلام بالوقائع والأحداث. ومن هنا كان حظ التخييل في هذا الخطاب ضئيل. إذ يتراجع دائما أمام المحتوى، لأن الخبر الذي يحظى بعناية ابن قتيبة هو الخبر–الأطروحة الموجه أساسا للإفادة. أما الجزئيات التي يطعم بها الخبر بغرض الإمتاع

---

[9] ـ الجاحظ، الحيوان، ج 1، ص: 30.
[10] ـ نفسه، ج 2، ص: 282.

فهي مجرد زوائد ينبغي حذفها والتخفف منها. ولذلك جرد ابن قتيبة خبر الجاحظ من كل التفاصيل التي غايتها إغناء أدبية الخبر .

إن ما يهم ابن قتيبة هو محتوى الخبر الداعم للأطروحة التي يدافع عنها. وهو غرض يكفي، للوفاء به، الاقتصار على رواية الحدث وإثبات الفعل الذي يتحول في كثير من المواضع إلى بنية استدلالية، الغرض منها تسويغ الرأي الكلامي وترجيحه. ولذلك كان هذا الضرب من الأخبار يدخل ضمن "الحكاية التعليلية"[11] التي تساق دعما للفكرة. ولا ينظر إليها بوصفها تخييلا يمكن أن يغتني به الملمح الأدبي في النص السردي. ذلك أن ابن قتيبة منشغل، كما يظهر من السياق الذي يتنزل فيه الخبر عموما وخصوصا، بالدفاع عن أهل الحديث ونفي الشبهة عنهم عن طريق رفع التناقض والتعارض عن الأحاديث التي يراها الخصوم كذلك. ولذلك كانت وظيفية الخطاب الخبري مقدمة عنده على متطلبات التخييل ومقتضيات الأدبية. وإذا كانت هذه الخصيصة بارزة في مصنفات ابن قتيبة عامة، فقد برزت بشكل أكثر وضوحا في كتبه السجالية وعلى رأسها "تأويل مختلف الحديث"، حيث يظهر الخبر سلاحا يشهره ابن قتيبة في وجه خصومه المذهبيين. ومن هنا جاء توظيف الخبر عند ابن قتيبة متنوعا تنوع الغايات التي رسمها لخطابه؛ فقد يروي الخبر ترجيحا لرأي كما يسوقه تدليلا على فساد مقالة، وقد يسوقه أيضا طعنا في نحلة، أو تشهيرا بمذهب، مما يؤكد أن الخبر عند ابن قتيبة لا ينفصل عن إيديولوجيا المؤلف الذي يوجد خارج النص. ولا شك أن الإيجاز بما هو صيغة تعبيرية مكثفة يشكل استراتيجية بلاغية مناسبة للوفاء بمثل هذه المقاصد التي يغلب عليها المنحى الوظيفي العملي، حيث تتمثل فاعلية الإيجاز في أنه "يأخذ بعدا تداوليا فمن اليسير حفظه ومعرفته ونقله ويتحقق به التركيز على إحدى القضايا فهو يحقق إلى جانب ذلك الغاية الإبلاغية التعليمية"[12].

---

[11] - خولة شخاترة، بنية النص الحكائي في كتاب الحيوان للجاحظ، ص: 32

[12] - عيد بلبع ، السياق وتوجيه دلالة النص، مقدمة في نظرية البلاغة النبوية ص: 634

لقد مثل ميل ابن قتيبة إلى إيجاز بنية النصوص الخبرية وإجمال متونها اختيارا بلاغيا مارسه المؤلف بوعي تام نظرا لملاءمته الوضع التواصلي التخييلي الذي تولى إنشاءه في نصوصه الخبرية، فالإيجاز في هذا المقام ينطوي على قوة حجاجية وتأثيرية كبيرة مكنت ابن قتيبة من تبليغ آرائه وتصوراته من أقرب طريق بعد أن حذف جميع التفاصيل التي من شأنها أن تشوش على تواصله مع قارئ عام غير مستعد لقراءة نصوص طويلة تغص بالتفاصيل. وهو في ذلك متأثر بالبيان النبوي الذي شكل الإيجاز أصلا من أصول بلاغته الإقناعية. فقد روى ابن قتيبة حديثا للرسول (ص) في باب "العلم والبيان" من كتاب "عيون الأخبار" جاء فيه: " أطيلوا الصلاة وأقصروا الخطب"[13]. وفي ذلك دليل على أن بلاغة الخبر عند ابن قتيبة خاضعة لمقياس خطابي يغلب الوظيفة التواصلية العملية على الوظيفة التواصلية الأدبية؛ فمن مميزات مقام الخطابة أن المتلقي يمارس الفهم المباشر ولذلك قال عبيد الله بن عتبة في تعريف البلاغة إنها "دنو المأخذ وقرع الحجة وقليل من كثير"[14].

لقد شكلت النصوص الخبرية عند ابن قتيبة استجابة بلاغية للمقصدية الوظيفية والإقناعية التي حكمت إنتاجها ووجهت صياغتها. ولذلك اتخذت هذه النصوص صورة فعل قولي منخرط في أتون الصراعات الفكرية والعقدية التي خاضها ابن قتيبة ضد خصومه. وقد نجم عن ذلك أن ألقت المقصدية الوظيفية الإقناعية بظلالها على مختلف المستويات المشكلة لبلاغة النص الخبري سواء على مستوى الشكل أو المضمون أو التقنية السردية.

---

[13] - ابن قتيبة، عيون الأخبار ج 2 ص:142

[14] - أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين ص: 16